

بيارو الذئب



أجمل كتاباتي



أجمل حكاياتي

بِيَارُ وَالدُّبُّ

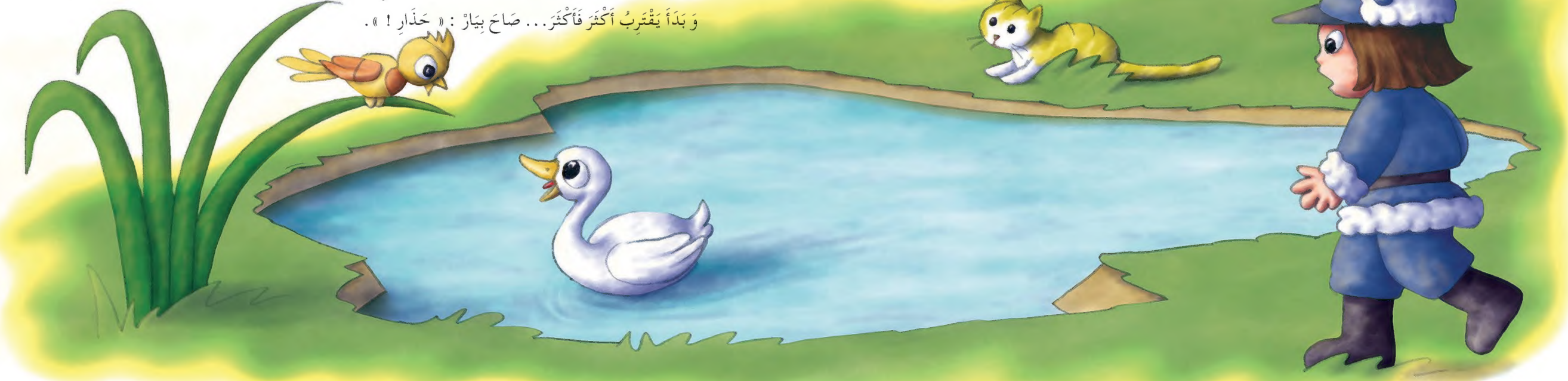


مقتبسة من حكايات سيرغاي بروكوفياف
رسوم : منصور عموري

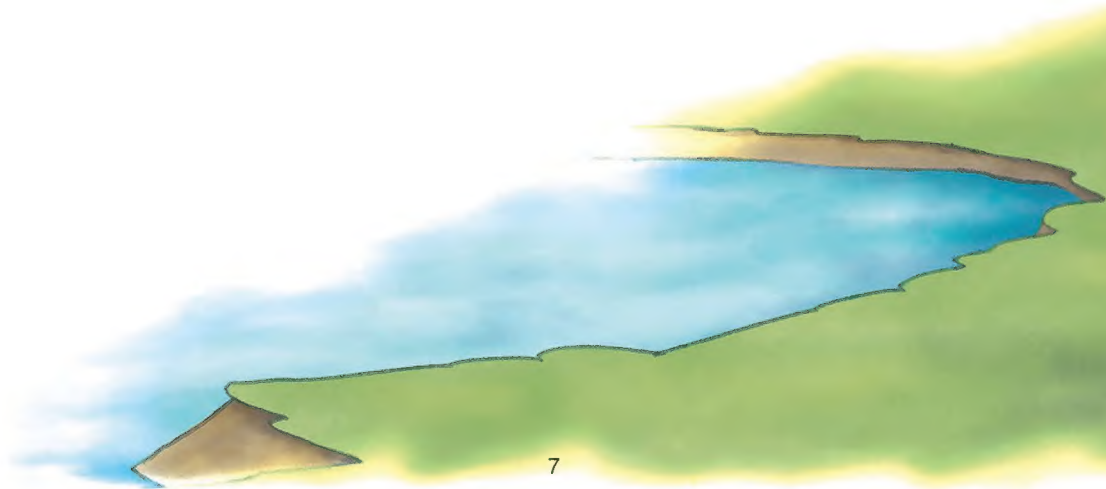
كَانَ يَا مَا كَانَ، فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، فِي بِلَادٍ تُدْعَى رُوسِيَا، طِفْلٌ صَغِيرٌ يُسَمَّى
بِيَارَ... كَانَ يُقِيمُ مَعَ جَدِّهِ فِي بَيْتٍ خَشَبِيٍّ جَمِيلٍ. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، أَرَادَ بِيَارُ
أَنْ يَسْتَمْتَعَ بِالْهَوَاءِ الْعَلِيلِ، فَخَرَجَ مِنْ حَدِيقَةِ جَدِّهِ، وَتَرَكَ الْبُؤَابَةَ مَفْتُوحَةً وَرَاءَهُ.
وَعَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ، كَانَتْ شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ قَدْ نَمَتْ... فَوْقَ أَغْصَانِهَا، عَثَرَ
بِيَارُ عَلَى صَدِيقِهِ الْعُصْفُورِ الصَّغِيرِ.



وَ عِنْدَمَا وَجَدَتِ الْبَطَّةُ الْبَوَابَةَ مَفْتُوحَةً، اغْتَنَمَتِ الْفُرْصَةَ هِيَ أَيْضًا لِتَخْرُجَ وَ تَغْطِسَ فِي الْبِرْكَةِ، فَحَطَّ الْعُصْفُورُ الصَّغِيرُ عَلَى صِفَةِ الْبِرْكَةِ، وَ رَاحَ يَسْخَرُ مِنْهَا قَائِلًا: « أَرَأَيْكَ دَوْمًا تَسْبَحِينَ أَيْتُهَا الْبَطَّةُ أَوْ تَمْشِينَ... أَيُّ طَائِرٍ أَنْتِ إِنْ لَمْ تَقْدِرِي عَلَى الطَّيْرَانِ ؟ » أَجَابَتْهُ الْبَطَّةُ: « وَ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الطُّيُورِ أَنْتِ، إِنْ لَمْ تَتِمَكَّنْ مِنَ السَّبَاحَةِ ؟ » وَ اسْتَمَرَ الْجِدَالَ بَيْنَهُمَا، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ الْآخِرَةُ لَهُ. وَ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْهُمَا، كَانَ الْقِطُّ يَتَجَوَّلُ، وَ بَحَذَرٍ وَ صَمْتٍ، رَاحَ يَتَسَلَّلُ بَيْنَ الْأَعْشَابِ الْعَالِيَةِ، وَ كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ، وَ هُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ الْعُصْفُورِ الصَّغِيرِ: « يَا لَهُ مِنْ صَوْتٍ جَمِيلٍ ! سَيَكُونُ هَذَا الْعُصْفُورُ، حَسَبَ مَا أَرَى، وَجِبَةً لَذِيذَةً ». وَ بَدَأَ يَفْتَرِبُ أَكْثَرَ فَكْثَرَ... صَاحَ بِنَارٍ: « حَذَارِ ! ».



وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَ الْعُصْفُورِ غَيْرَ وَقْتٍ قَلِيلٍ لِيَطِيرَ وَ يَتَشَبَّثَ بِالْعُصْنِ . أَمَّا الْبَطَّةُ ، الَّتِي بَقِيَتْ وَسَطَ الْبِرْكَةِ ، فَكَانَتْ تُطَلِّقُ صَيِّحَاتٍ كَبِيرَةً غَاضِبَةً تَجَاهَ الْقِطْ . نَظَرَ الْقِطْ إِلَى الْعُصْفُورِ الصَّغِيرِ ، وَ هُوَ يَتَسَاءَلُ : « هَلْ مِنْ فَائِدَةٍ فِي أَنْ أَتَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ وَ أُتَعِبَ نَفْسِي مِنْ أَجْلِ هَذَا الطَّائِرِ اللَّعِينِ ؟ كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطِيرَ هَذَا الطَّائِرُ بَعِيدًا ، عِنْدَمَا أَصِلُ أَنَا إِلَى الْأَعْلَى » . فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، خَرَجَ الْجَدُّ مِنَ الْبَيْتِ ، وَ صَاحَ بِغَضَبٍ : « بِيَارُ ، أَلَمْ أَقُلْ لَكَ أَلَّا تُغَادِرَ الْحَدِيقَةَ ؟ وَ كَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ لَوْ ظَهَرَ الذُّئْبُ ؟ هَيَّا عُدْ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْبَيْتِ » . وَ لَكِنَّ بِيَارَ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَخْرُجَ لِلتَّنَزُّهِ حَيْثُمَا أَرَادَ ، وَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَخَافُ مِنَ الذُّئَابِ مُنْذُ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ . غَيْرَ أَنَّ جَدَّهُ سَحَبَهُ بِحَزْمٍ مِنْ يَدِهِ ، وَ جَرَّهُ نَحْوَ الْبَيْتِ ، بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ بَوَابَةَ الْحَدِيقَةِ بِعِنَايَةٍ .





وَحَسَنًا فَعَلَ الْجَدُّ ؛ فَبَعَدَ وَقْتُ قَصِيرٍ ، خَرَجَ ذَنْبٌ أَسْوَدُ كَبِيرٌ مِنَ الْعَابَةِ ، فَقَفَزَ الْقِطُّ إِلَى الشَّجَرَةِ ، أَمَّا
الْبُطَّةُ الْمِسْكِينَةُ ، فَقَدْ انْطَلَقَتْ - بِلاَ حَذِرٍ - خَارِجَ الْبُرْكَه ، وَهِيَ تَصِيحُ خَائِفَةً . كَانَ الذُّبُّ مُصَمِّمًا
عَلَى الْإِمْسَاكِ بِهَا ، كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَرْكُضُ خَلْفَهَا : « مَيَّام ! مَيَّام ! سَأَسْتَمْتِعُ بِأَكْلِهَا » .
شَعَرَتِ الْبُطَّةُ ، وَهِيَ فِي مُنْتَهَى الْفَرْعِ ، بِالذُّبِّ يَقْتَرِبُ ، وَ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ . . . إِنَّهُ هُنَا ، قَرِيبٌ جِدًّا .
وَبِالْفِعْلِ ، ابْتَلَعَهَا الذُّبُّ فِي لُقْمَةٍ وَاحِدَةٍ . بَعْدَ ذَلِكَ ، خَطَا الذُّبُّ بَعْضَ الْخُطَوَاتِ ، وَ رَاحَ يَدُورُ
حَوْلَ الشَّجَرَةِ ؛ فَرَأَى الْقِطُّ مُتَشَبِّهًا بِغُصْنٍ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ . وَفِي الْجِهَةِ
الْأُخْرَى ، فِي أُبْعَدِ مَكَانٍ مُمَكِّنٍ عَنِ الْقِطِّ ، كَانَ الْعُصْفُورُ الصَّغِيرُ سَاكِنًا فَوْقَ أَحَدِ الْأَغْصَانِ . وَ عَبْرَ
سِيَاحِ الْحَدِيقَةِ كَانَ بَيَّارٌ يُتَابِعُ الْمَشْهَدَ بِاهْتِمَامٍ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ خَائِفًا أَبَدًا . . . كَانَ هُنَاكَ جِدَارٌ كَبِيرٌ
يُحِيطُ بِالْحَدِيقَةِ وَ كَانَتِ الشَّجَرَةُ عَلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى مُبَاشَرَةً ، كَمَا كَانَ أَحَدُ أَغْصَانِهَا يَمْتَدُّ عَبْرَ
الْجِدَارِ إِلَى دَاخِلِ الْحَدِيقَةِ . فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، خَطَرَتْ لِبَيَّارٍ فِكْرَةٌ : أَمْسَكَ بِالْغُصْنِ وَ تَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ ،
وَ وَصَلَ إِلَى حَيْثُ الْعُصْفُورُ الصَّغِيرُ .

قَالَ بِيَارَ لِلْعُصْفُورِ : « اسْمَعْنِي جَيِّدًا، عَلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ تَعْلِيمَاتِي بِدِقَّةٍ ... سَتَطِيرُ فَوْقَ رَأْسِ الذِّئْبِ، وَأَنْتِ تَدُورُ فِي الْهَوَاءِ، فَأَنْتِ تَحْسِنُ فِعْلَ ذَلِكَ، وَعَلَيْكَ أَلَّا تَبْتَغِدَ عَنِ الشَّجَرَةِ. وَلَكِنْ حَذَارِ أَنْ يُمَسِكَ بِكَ الذِّئْبُ. هَلْ هَذَا مَفْهُومٌ ؟ » ... فَأَجَابَهُ الْعُصْفُورُ : « نَعَمْ، هَذَا مَفْهُومٌ ». نَزَلَ بِيَارَ وَقَفَزَ دَاخِلَ الْحَدِيقَةِ، ثُمَّ رَكَضَ نَحْوَ الْبَيْتِ وَجَلَبَ حَبْلًا غَلِيظًا، وَصَنَعَ فِي طَرَفِهِ أُنْشُوطَةً. فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ الْعُصْفُورُ الصَّغِيرُ يَطِيرُ فَوْقَ الْأَنْيَابِ الْمُخِيفَةِ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ، أَثَارَتْ أَغْصَابَ الذِّئْبِ. وَبَيْنَمَا كَانَ الذِّئْبُ مَشْغُولًا بِرَعْبَتِهِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْعُصْفُورِ وَالتَّهَامِهِ ... صَعِدَ بِيَارَ إِلَى أَعْلَى الشَّجَرَةِ، وَرَاحَ يَلْفُفُ الْأُنْشُوطَةَ فِي الْهَوَاءِ، مُرَكِّزًا عَلَى فَمِ الذِّئْبِ، ثُمَّ رَمَاهَا بِأَقْصَى دِقَّةٍ مُمَكِنَةٍ.





وَكَأَنَّهُ سَاحِرٌ بَارِعٌ ! انْتَفَتَحَتِ حَلَقَةُ الْأُنْشُوطَةِ عَلَى رَقَبَةِ الذِّئْبِ بِمُنْتَهَى الْإِحْكَامِ، وَبِسُرْعَةٍ
جَذَبَ بِيَارَ الْحَبْلِ لِيُضَيِّقَ الْأُنْشُوطَةَ، وَرَبَطَ الطَّرْفَ الْآخَرَ مِنَ الْحَبْلِ بِأَحَدِ الْأَغْصَانِ ؛ فَسَقَطَ
الذِّئْبُ فِي الْفَخِّ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، شَاهَدَ بِيَارُ ثَلَاثَةَ صَيَّادِينَ قَادِمِينَ مِنَ الْعَابَةِ يَقْتَفُونَ أَثَرَ
الذِّئْبِ، فَقَدْ مَضَتْ أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ، وَهُمْ يُحَاوِلُونَ صَيْدَهُ. صَاحَ بِيَارُ مُنَادِيًا إِيَّاهُمْ : « لَا تُطْلِقُوا
النَّارَ، إِنِّي قَبِضْتُ عَلَى الذِّئْبِ ... الْآنَ سَاعِدُونِي عَلَى نَقْلِهِ إِلَى حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَاتِ ! » .

وَفِي جَوْ مِنْ الْإِحْتِفَالِ، وَهُوَ يَعْبُرُ - مَرْهُوًّا - الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَّةَ إِلَى حَدِيقَةِ حَيَوَانَاتِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ
 الْمَجَاوِرَةِ، تَبِعَ بَيَارُ الصَّغِيرِ الصَّيَّادِينَ الثَّلَاثَةَ ؛ وَكَانَ الْجَدُّ يَمْشِي وَرَاءَهُمْ، وَقَدْ تَبِعَهُ الْقِطُّ.
 وَكَانَ الْعَصْفُورُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ يُعْنِي، طَرِبًا، أُغْنِيَّةً تَقُولُ : « هَلْ رَأَيْتُمْ، هَلْ رَأَيْتُمْ ؟ أَنَا وَبَيَارُ قَهْرُنَا
 الدُّبَّ ! » أَمَّا الْجَدُّ، فَقَدْ قَالَ لِنَفْسِهِ مُتَمَتِّمًا، وَهُوَ يُدَاعِبُ لِحْيَتَهُ : « كُلُّ هَذَا جَمِيلٌ، لَكِنْ لَوْ
 أَنَّ بَيَارَ لَمْ يُفْلِحَ فِي الْقَبْضِ عَلَى الدُّبِّ، مَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ ! ».





وَإِذَا أَطْرَقَتِ السَّمْعُ، كَانَ يُمَكِّنُ سَمَاعُ صَوْتٍ خَافَتْ يُنَادِي : « أَخْرِجُونِي مِنْ هُنَا !،
أَخْرِجُونِي مِنْ هُنَا ! » كَانَ الصَّوْتُ لِلْبَطَّةِ، الَّتِي كَانَتْ فِي عُمُقِ بَطْنِ الذُّئْبِ، وَهِيَ تُنَادِي
وَتَتَحَرَّكُ، لِأَنَّ الذُّئْبَ بَلَعَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ ! وَلِحَسَنِ الْحَظِّ عِنْدَ الْوُصُولِ إِلَى حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَ،
تَمَّ التَّمَكُّنُ مِنْ جَعْلِ الذُّئْبِ يَتَقَيَّأُ مَا فِي مَعِدَتِهِ وَ أُنْقَذَتِ الْبَطَّةُ الْمُسَكِينَةُ مِنْ مَوْتٍ فَظِيعٍ .